## (٤٦)

# قصة خباب بن الأرت

عن أبي عبد الله خبّاب بن الأرت ﷺ قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض ، فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويُمشَطُ بأمشاط الحديد – ما دون لحمه وعظمه– وما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللهَ والذئبَ على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[1] .

**دروس من القصة :**

**تشير القصة إلى سنة من السنن الإلهية في :**

* الابتلاء : فهو الطريق ، الذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة التي تحمل الدعوة وتنهض بتكاليفها . وهو طريق التربية لهذه الجماعة وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال ؛ ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودا ، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها والصبر عليها ورفع راية النصر على أعدائها.

وتختلف وسائل الابتلاء والفتنة باختلاف الزمان ، لكن القاعدة واحدة : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾[2] .

وقال ـ تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[3] .

---

(١) البخارى ( ٦٩٤٣ ) .
(٢) آل عمران : ١٨٦ .
(٣) محمد : ٣١ .

على هذا الأساس قال سيدنا رسول الله ﷺ وهو يلفت نظر الصحابي الجليل خبَّاب بن الأرت ﷺ إلى هذه السنة الجارية : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ما يصده ذلك عن دينه » .

فهي سنة الدعوة فيهم وفيمن سبقهم وفيمن سيأتي بعدهم من المؤمنين . ولا تبديل لسنة الله .

• والنصر، ويتناول الحديث سنة الله في النصر، قال ـ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾[2] . فإذا استقرت حقيقة الإيمان في النفوس ، فصبروا على الابتلاء ، وتجردوا لله ، وأقاموا الإسلام في أنفسهم وفي واقعهم ، جاءهم نصر الله .

على هذا الأساس ، قال سيدنا رسول الله ﷺ لخباب بن الأرت ﷺ يلفت نظره إلى هذه السنة الربانية : « والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » .

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ . والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول ، فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير ، وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن[3] .

**سنن ربانية في الابتلاء والنصر، بينها الهدي الرباني ، وطبقها الرعيل الأول بإشراف النبي الأمين ﷺ ، وعلى الخلف المؤمن أبناء الحركة الإسلامية أن يفهموا السنن ، فيثبتوا ، لينتصروا .**

---

(١) آل عمران .
(٢) محمد .
(٣) طريق الدعوة فى ظلال القرآن ، ص ٣٥٥ .

## (٤٧)

# بين سلمان وأبي الدرداء

عن أبي جحيفة ـ وهب بن عبد الله ﷺ قال : آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء فـرأى أم الـدرداء متبذلة [١] . فقال لها : ما شأنك؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال له : كلْ فإني صائم . قال : ما أنا بآكل حتى تأكل ، فأكل ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم . فقال له : نم، فنام ، ثم ذهب يقوم ، فقال : نم ، فلما كان آخر الليل قال سلمان : قم الآن . فصليا . فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه . فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فقال النبي ﷺ : « صدق سلمان» [٢].

**دروس من القصة :**

في هذه القصة التي جرت حوادثها في المدينة المنورة بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء اللذين آخى رسول الله بينهما ، درس عظيم يحتاج إليه الدعاة المسلمون ، فمن خصائص المنهج الإسلامي في التربية : التوازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل وطاقة الروح ، توازن بين ماديات الإنسان ومعنوياته : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [٣] . وسطا في كل شيء ، متوازنين في كل ما تقومون به .

لقد صانت هذه الخاصية الفريدة المسلم من الاندفاعات هنا وهناك ، والغلو هنا وهناك ، والتصادم هنا وهناك ؛ لأن هذه الآفات لم يسلم منها أي تصور آخر سواء التصورات

---

(١) غير معتنية بمظهرها .
(٢) البخارى ( ٦١٣٩ ).
(٣) البقرة : ١٤٣ .

الفلسفية ، أو التصورات الدينية التي شوهتها التصورات البشرية بما أضافته إليها أو أنقصته منها أو أولته تأويلات خاطئة ، وأضافت هذا التأويل إلى صلب العقيدة [1] .

إن استغلال الإنسان لطاقاته جميعا بشكل متوازن، يحدث توازنا في داخل النفس وفي واقع الحياة سواء . فالتوازن في نظر الإسلام يشمل كل نشاط الإنسان ، توازن بين ماديات الإنسان ومعنوياته ، توازن بين الإيمان بالواقع المحسوس والإيمان بالغيب الذي لا تدركه الحواس ، توازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية ، توازن بين النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، توازن في كل شيء في الحياة [2] .

ولم يزد سيدنا رسول الله ﷺ على مطالبة سلمان ﷺ لأخيه أبي الدرداء ﷺ بأن يقيم التوازن بين حق ربه ، وحق نفسه ، وحق أهله، لم يزد ﷺ على قوله : « صدق سلمان » .

**هكذا كان الصف المسلم يتصرف ، بعد أن استكمل رسول الله ﷺ تربيته لهم ، وعلى الخلف أن يقتدي بسلفه .**

(١) خصائص التصور الإسلامى ومقوماته : سيد قطب ، ص ١١٤ .
(٢) منهج التربية الإسلامية : محمد قطب ١/ ٢٧ .

## (٤٨)

# قسمة ما عدل فيها!

دخل رسول الله ﷺ مكة في اليوم العشرين من رمضان ، سنة ثمان من الهجرة الموافق كانون الثاني (يناير) ٦٣٦م ، وظل بها قرابة عشرين يوما يرتب شؤونها ، ويخرجها من جو الوثنية والأصنام إلى أجواء الوحدانية والإسلام .

وكأنما عزّ على هوازن وثقيف أن تدور عليهم الدائرة ، وأن ينالهم ما نال قريشا من تبديل دينها وتهديم أصنامها ، ومن خضوعها لسلطان الإسلام بعد ما كان من عزها وسؤددها . فاتفق رأيهم على أن يبادروا محمدا بالغزو قبل أن يبادرهم ، وسمع رسول الله ﷺ بما أعدت هوازن وثقيف ، فلما تبين له صدق ما عزموا عليه ، أراد أن يفاجئهم قبل أن يفاجئوه ، فخرج من مكة في السادس من شوال الموافق ٢٨ كانون الثاني (يناير) ٦٣٠م قاصدا إلى هوازن وثقيف ، في اثني عشر ألفا من الرجال : عشرة آلاف التي جاء بها إلى مكة ، وألفان من أهلها ، فخرج الجيش في مظهر بالغ القوة ، حتى ظن بعض المسلمين أن لن يغلبوا مع هذه الكثرة .

ولقد صور القرآن الكريم أحداث الغزوة ، فقال ـ تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1] .

---

(١) التوبة .

واضطرب الجيش الإسلامي حين فاجأهم العدو بالسهام تنحط عليهم في الظلام من كل فج ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وولوا منهزمين ، ووقف رسول الله ﷺ وجعل يصيح بالناس : « أين أيها الناس؟ هلموا إلي! أنا رسول الله! أنا محمد بن عبد الله!

أنا النبي لا كذب  أنا ابن عبد المطلب »

واجتمع حول رسول الله ﷺ طائفة من الرجال الصادقين في عزائمهم وفي إيمانهم ، وحملوا على العدو ، وانقلبت موازين المعركة مرة أخرى لصالح المسلمين ، وغنم المسلمون من عدوهم شيئا كثيرا . فكانت أربعة وعشرين ألفا من الإبل ، وأربعين ألفا من الغنم ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وستة آلاف من النساء والبنين . فاستأنى رسول الله بالسبي ، وبدأ بالأموال فقسمها بين الناس .

ولما كانت النفوس طُلَعَةً إلى المال ، وكان البذل والعطاء مفتاحا من مفاتيح القلوب ، ومدخلا من مداخل النفوس ، فقد أجزل رسول الله ﷺ العطاء لنفر من أشراف قريش ومن سادات العرب وأمرائها ، يريد بذلك أن يتألف قلوبهم إلى الإسلام . فقد علم رسول الله ﷺ أن كثيرا ممن أسلم من هؤلاء السادة ، لا يزال حديث العهد بجاهليته ، وأن كثيرا ممن لم يسلم إنما خرج معه طمعا في الغنيمة ، فما زال يستعين على تأليف قلوبهم بالعطاء ، حتى أسلم من لم يكن أسلم ، واطمأن إلى الإسلام من كان قد أسلم .

أبو سفيان بن حرب زعيم قريش يقول وقد رأى الجيش الإسلامي يندحر أمام جيش المشركين : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر .

أبو سفيان هذا ، جاء إلى النبي ﷺ وهو يوزع الغنائم والفضة بين يديه فقال : يا رسول الله أصبحت أكثر قريش مالا ، فتبسم رسول الله ﷺ . قال أبو سفيان : أعطني من هذا يا رسول الله ، فقال : « يا بلال ، زن لأبي سفيان أربعين أوقية، وأعطوه مائة من الإبل ». فقال أبو سفيان : ابني يزيد ، قال : « زنوا ليزيد أربعين أوقية، وأعطوه مائة من الإبل » . فقال أبو سفيان : ابني معاوية يا رسول الله ، قال : « زن له يا بلال أربعين أوقية ، وأعطه مائة من الإبل » . فقال أبو سفيان : إنك لكريم ، فداك أبي وأمي! والله لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت! جزاك الله خيرا[1] .

(١) صور من حياة الرسول : أمين دويدار ، ص ٥٤٢-٥٥٠ باختصار .

وهكذا تغير أبو سفيان من شامت بالهزيمة ، إلى إنسان يطلب الغنيمة ، فلما أعطي أكثر مما كان يتوقع تغيرت لهجته ، ورقت كلمته ، وقال لرسول الله : فداك أبي وأمي ، جزاك الله خيرا .

وجرى المشهد ذاته مع صنديد آخر من صناديد الشرك صفوان بن أمية ، وكان طلب من النبي أن يجعله بالخيار شهرين ، رآه يرمق شِعبا مملوءا نَعَما وشاءً فقال له : « أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب »؟ فقال : نعم . فقال : « هو لك بما فيه » . فقال صفوان : إن الملوك لا تطيب نفوسها بمثل هذا ، ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نبي! أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . تغير صفوان ، من خصم عنيد للإسلام ، خاف على نفسه يوم الفتح ، ففرّ إلى البحر ، ثم أمنه رسول الله ﷺ ، وطالب النبي بأن يجعله بالخيار شهرين . تغير الرجل وقال : ما يفعل ذلك إلا نبي ، وشهد شهادة الإيمان بالله ورسوله .

## الأنصار تجد على رسول الله ﷺ :

ولم تُفهم هذه السياسة أول الأمر ، وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة ، لقد حرموا جميعا أعطية حنين ، وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع الرسول ﷺ حتى تبدل الفرار انتصارا ، وها هم أولاء يرون أيدي الفارين ملأى ، وأما هم فلم يمنحوا شيئا قط [1] . وتباينت ردود فعل الأنصار .

* فمنهم من تحدث بما لا يليق بمقام النبوة ، أخذتهم العزة الكاذبة وحمية الجاهلية ، فقال بعضهم : إن هذه لقسمة ما عدل فيها ، وما أريد بها وجه الله[2] . وقال رجل من بني تميم يقال له : ذو الخويصرة ، موجها كلامه إلى النبي ﷺ : لم أرك عدلت ، اعدل .

وغضب رسول الله ﷺ ، وقال : « ومن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر» . قال عمر ﷺ : يا رسول الله دعني أقتل هذا المنافق . فقال رسول الله ﷺ : « معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي » [3] .

---

(١) فقه السيرة : محمد الغزالى ص ٢٩٨ .
(٢، ٣) البخارى ( ٣١٥٠ ) ، ومسلم (١٠٦٢/ ١٤٠) .

هؤلاء نفر هم أقرب إلى النفاق ، فما أن رأوا أمرا لم يفهموه ، حتى أساؤوا الظن، وشككوا بالنوايا ، وأغلظوا القول، ووجهوا الاتهام .

ويترفق بهم رسول الله ﷺ، ويكتفي بالقول : « لقد أوذي موسى بأكثر من ذلك فصبر » .

- وفريق ثان ، لم يفهموا سياسة النبي ﷺ ، فقالوا : (وددنا أن نعلم ممن كان هذا ، فإن كان من أمر الله ـ تعالى ـ صبرنا، وإن كان من رأي رسول الله ﷺ استعتبناه) [1]. أدب جمٌ مع الله ورسوله ، فإن كان أمراً أنفذوه وإن كان اجتهادا من النبي استعتبوه .

- وفريق ثالث من الأنصار لم يفهموا سياسة النبي كذلك ، وجعلوا يتهامسون القول فيما بينهم ، عن أبي سعيد الخدري قال : لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقي – والله– رسول الله قومه! فدخل عليه سعد بن عبادة ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم، قال : « فيم »؟ قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ، ولم يك فيهم من ذلك شيء، فقال رسول الله ﷺ: « فأين أنت من ذلك يا سعد »؟ قال : ما أنا إلا امرؤ من قومي، فقال رسول الله ﷺ : «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، فإذا اجتمعوا فأعلمني » .

يا معشر الأنصار :

فخرج سعد يصرخ فيهم ، حتى جمعهم فأتاهم رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ـ تعالى؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا : بلى والله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال: « ألا تجيبوني يا معشر الأنصار »؟ قالوا : وبماذا نجيبك؟ المن لله ـ تعالى ـ ولرسوله ﷺ قال : « والله لو شئتم لقلتم فأصدقتم وصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ،وعائلا فآسيناك »

(١) البخارى (٣١٥٠) ، ومسلم ( ١٠٦٢/ ١٤٠) .

فسكتوا. فقال رسول الله ﷺ : « أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصاراللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا بالله ورسوله حظا وقسما [1] .

**دروس وعبر :**

من هذه الحادثة ندرك أن من يكون في موقع المسؤولية ستكون قراراته محط أنظار الجميع، خصوصا عندما تكون هذه القرارات على خلاف المألوف، ومواقف أفراد الجماعة منها ستتخذ إحدى صور ثلاث :

- **مجموعة تثق بالقيادة** : وحكمتها ثقة مطلقة ، فتقبل بتصرفها حتى لو حارت فيه ولم تستطع أن تفهم مبرراته . وستعمل على كبح جماح من لا يتقبل هذا التصرف ويبدي تذمره منه . (وهذا النوع يندر وجوده ، إلا عندما تكون الإمرة بيد رسول معصوم) وقد تمثل هذا الموقف في فقهاء وحكماء الأنصار .
- **ومجموعة ثقتها بالقيادة** : لم ترق إلى مستوى الجماعة الأولى ؛ لأن فيها من البساطة أو الحداثة في السن أو الحداثة في الانتماء للجماعة ما يجعلها تعرّض بهذا التصرف، وترفع صوتها مطالبة بتوضيح ما خفي عليها من الأمر ، وتصرّ على تقديم المبررات للتصرف غير المألوف حتى تطمئن .
- **ومجموعة لا تثق بالقيادة** : ولم تنتسب للجماعة إلا طمعا في مغنم ، أو كسبا لجاه ، أو طموحا لموقع ، ولم يلامس الإيمان الصادق قلبها . تظهر عكس ما تبطن ، وتتربص بالجماعة وقيادتها الدوائر، فإذا ما سنحت لها الفرصة أطلقت لألسنتها العنان ، وراحت تتهم وتحرض ، وتجهر بالقول السيئ ، ويعلمنا رسول الله ﷺ القائد القدوة ، كيف نتصرف في مثل هذه المواقف :

---

(١) مسلم (١٠٥٩/ ١٣٣) ، وانظر : صور من حياة الرسول ، مرجع سابق ص ٥٥٢ .

١- على الأفراد عندما لا يستطيعون فهم مبررات أي قرار يصدر عن القيادة ألا يتسرعوا في الأقاويل ، وألا يسيؤوا الظن ، بل يطلبوا من مصدر القرار أن يوضح لهم ما التبس عليهم .

٢- وعلى المسؤول عندما يصدر القرار أن يحرص - ما أمكن- على توضيح مبررات هذا القرار ودوافعه وأسبابه ، حتى لا يحصل لبس في فهمه ، فيؤدي إلى مشكلة .

٣- وعلى من أنعم الله عليهم بعقل راجح وفهم مميز وخبرة في العمل وثقة في المسؤول أن يكبحوا جماح من يكونون حديثي سن أو حديثي عهد فيما قد يبدر منهم من تصرفات في غير محلها .

٤- وعلى من يكون في موقع المسؤولية أن يهتم بمعالجة أي قضية في وقتها ، وأن يسرع في حلها ، وخصوصا عندما تصدر عن مجموعة ليست موضع شك في صدق انتمائها وتوجهها ، وأن يغفر الزلات، ويشحذ الهمم ويذكر بالفضائل ، ويحيي المعاني الإيمانية ، ويطالبهم بالترفع عن الأهواء وأمور الدنيا التي لا تساوي عند المسلم المؤمن شيئا بالنسبة لما يأمله من رضاء الله والفوز بالآخرة .

٥- وعلى من يسمع لغطا في الصف ، أو مطعنا في تصرفات القيادة أن يبادر إلى إعلامها بذلك ، حتى تستدرك الأمر ، وتعالجه في حينه ، ولا يعد هذا من قبيل النميمة المذمومة المحرمة على المسلم ، بل هي من قبيل حفظ صف الجماعة ، ووجوب أن تعلم القيادة ما يدور في الصف من أمور تخصها ، وتؤثر على تماسك الصف ووحدته .

**هكذا عالج النبي ﷺ قالة السوء في الصف المسلم ، وهكذا فليفعل الدعاة على مرّ التاريخ لحفظ الصف وصيانته .**

## (٤٩)

# قزمان يقاتل عن أحساب قومه

ذكر ابن اسحاق قال:كان عندنا رجل غريب يقال له : قزمان ، وكان ذا بأس وقوة، وكأن رسول الله ﷺ إذا ذكر له يقول : « إنه من أهل النار » .

فلما كان يوم أحد قاتل قزمان قتالا شديدا ، ويقال : إنه أول من رمي من جانب المسلمين بسهم في المعركة ، وكان يرمي بالنبال كأنها الرمال ، ثم فعل بالسيف الأفاعيل ، ولقي المشركون منه الأهوال . ذكر ابن كثير أن قزمان جرح جراحات كثيرة في المعركة يوم أحد، فحمل إلى داره بالمدينة ، وكان المسلمون يغدون عليه ويقولون : أبشر قزمان . فيقول لهم : بم أبشر؟ وأنا ما قاتلت إلا عن أحساب قومي ، لم أقاتل على دين ، ولكني قاتلت قريشا حتى لا تطأ أرضنا .

وعندما اشتدت الآلام على قزمان ، أخذ سهما من كنانته فقطع بها رواهشه (شريان باطن الذراع) فنزف حتى مات .

هذه الحادثة تذكرنا بالفعل الجليل : قتالٍ وجهاد ، أو صدقة وعطاء ، أو دعوة وداعية ، كل ذلك لا يستفيد منه الإنسان إن لم يكن فعله في سبيل الله .

سأل الصحابة النبي المعلم فقالوا : يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم ، ويقاتل للذكر، ويقاتل ليرى مكانه أيهم في سبيل الله ؟ قال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

**فليحذر الدعاة من أن يكون نصبهم وتضحيتهم وسعيهم في سبيل الدنيا ، فيكون مصيرهم كمصير قزمان الذي دافع عن أحساب قومه .**

(٥٠)

## خديجة الكبرى مثلهن الأعلى

كان النبي محمد ﷺ ، بعيدا عن ترهات قومه ، حبب إليه الخلاء ، فكان يأخذ السويق والماء ويذهب إلى غار حراء في جبل النور يتحنث ويتعبد ويتفكر في ملكوت السموات والأرض ، وفيما وراءها من قدرة مبدعة .

وكانت خديجة تؤمن له الهدوء الشامل ، والاستقرار الكامل ، تأخذ له الطعام إلى الغار إذا أبطأ عنها ، وتكلؤه بحبها إذا حضر إليها ، كانت مقتنعة بعمله ، مدركة بفطرتها السليمة أن لزوجها شأنا عظيما .

وعلى رأس الأربعين عاما ، جاء الحق محمدا ﷺ وهو في غار حراء ، جاءه الملك فقال :

اقرأ ، فقلت :« ما أنا بقارئ » قال :« فأخذني فضمني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت :

ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾[1] » .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة ، فقال : « زملوني زملوني ، لقد خشيت على نفسي يا خديجة ».

وتواجه خديجة العظيمة الموقف الكبير بمفردها ، فلا تجزع ولا ترتبك ولا تتردد ، بل وتخاطب الزوج الخائف وتقول : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل

---

(١) العلق .

الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، أبشر يا بن عم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

ولا تكتفي بذلك التطمين الأوليّ لتثبيت القلب الخائف ، فتأخذ بيده إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان شيخا كبيرا تنصر في الجاهلية ، فتقول له : يا بن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا بن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة : هذا هو الناموس الأكبر نزّله الله على موسى ، ليتني فيها جَذَعًا أنصرك حين يخرجك قومك ، ولئن أدركني يومك لأنصرنك نصرا مؤزرا [1] .

والسؤال هو : هل هناك شجاعة أعظم ، أو حكمة أبلغ ، أو موقف أكرم من فعل خديجة هذا وموقفها ؟ ألا تستحق أن تكون مثلهن الأعلى ؟

**في لوحتنا إشارات تستحق الانتباه :**

- كلمة اقرأ ، فاتحة التعاليم الإلهية ، ألا تعني الكثير للمسلمين ؟ وهل استمر المسلمون في قراءتهم باسم ربهم الذي خلق لتبقى حضارتهم حضارة هداية ، لا حضارة استعلاء وغواية .
- ألا تشير قولة ورقة : ليتني فيها جذعا أنصرك حين يخرجك قومك، إلى أن المحنة هي سنة الدعوات ؟
- **ومن ثم ، ألا تكشف القصة عن دور أم المؤمنين خديجة الرائد في صيانة الدعوة وحماية القائد ، وتشكل بذلك دعوة للأخت المسلمة في كل عصر ومصر بأن تنهج هذا النهج ؟**

---

(١) البخارى ( ٣ ، ٤ ) ، ومسلم ( ١٦٠/ ٢٥٢ ) .

## (٥١)

# أم المؤمنين عائشة وحديث الإفك

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾[1].

وحديث الإفك، الذي تناول بيت النبوة الطاهر الكريم، وعرّض رسول الله ﷺ أكرم إنسان على الله، وعرَّض صديقه الصدّيق أبا بكر ﷺ أكرم إنسان على رسول الله ﷺ وعرَّض رجلاً من الصحابة هو صفوان بن المعطل ﷺ يشهد رسول الله أنه لم يعرف عنه إلا خيرا، ويشغل المسلمين في المدينة شهرا من الزمان.

هذا الحادث قد كلف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلاما لا تطاق، وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل، وعلق قلب رسول الله

---

(١) النور.

وقلب زوجه عائشة التي يحبها ، وقلب أبي بكر الصديق وزوجه، وقلب صفوان . شهرا كاملا . علقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يطاق . ونحن هنا ، نريد التعليق باختصار على موقف أمنا عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها في خضم هذا الحدث الجلل .

لقد أراد المرجفون النيل من الإسلام ومن صاحب الرسالة فاختاروا هدفهم في شخص السيدة عائشة بنت الصديق ، فقد كانت شخصية مهمة على كل الأصعدة : الأقرب من قلب رسول الله ، والأفقه في دين الله ، ومن بيت الصديق أقرب المؤمنين إلى رسول الله ، ترعى المسلمات اجتماعيا ، صاحبة رأي وفكر ،ومن هنا فإن تسديد الهدف لهذه الشخصية الكبيرة سيكون ذا وقع كبير وتأثير شديد على الإسلام وعلى صاحب الرسالة .

- كانت عائشة وهي الجارية حديثة السن حكيمة في تناولها للموضوع فلم تحاول إثبات براءتها بالكلام،فما جدوى ذلك أمام حديث تناقله الناس وصدقه من صدقه، فلئن قلت لكم : إني بريئة لا تصدقونني ، ولا أقول إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[1] .

- عائشة البريئة ، كانت تدرك أن الله ـ تعالى ـ مبرئها ، ولكنها لم تتوقع أن ينزّل الله ـ تعالى ـ في شأنها قرآنا يتلى : (ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله ـ تعالى ـ بها) وهكذا رفع القرآن من مكانة المرأة ، واهتم رب العزة لقضيتها ، وأنزل فيها قرآنا يتعبد المسلمون بقراءته إلى ما شاء الله ، فبعد أن كانت المرأة في أنحاء الدنيا في جاهلية العرب وخارجها إنسانا هامشيا لايحسب له أحد حسابا ، إذا به تنشغل السماء بمظلمته ، وينزل القرآن ، يبرئ صاحبة هذه المظلمة .

- واستعلت عائشة بالوسام القرآني ، وكانت تفخر أبدا بقولها : (أنا التي أنزلت براءتي من السماء) . ولم يكن وساما لصدر أمنا عائشة فحسب ، بل ولصدر جميع بناتها المسلمات الداعيات في كل مصر وعصر .

---

(١) يوسف .